البناء والدلالة
في رواية"حين تركنا الجسر"
لعبد الرحمن منيف

د.صالح ولعة

جامعة باجي مختار بعنابة

تمهيد:

رواية"حين تركنا الجسر" نوع من الهذيان الذاتي لإنسان مهزوم، فقد رسمت الرواية بشكل دقيق، الوضع الهوسي الذي يعيشه إنسان خائب، يتكلم عن خيبته، ويعكس هذه الخيبة على العالم، بمعنى أنه يرجع كل العالم الخارجي إلى علاقات ذاتية.فهو لا يطارد طريدة بقدر ما يطارد ذاته، أو يحاول أن يدمر شيئا في داخله، فتكون رحلة الصيد الخارجية مرآة لرحلة طويلة في الذات، رحلة مناجاة يبحث فيها الخائب زكي نداوي عن سر خيبته وعجزه.

تحمل شخصية زكي نداوي ملامح نفسية وفكرية، هي انعكاس للواقع، هذا الواقع، هو بالتحديد هزيمة حزيران 1967.فكانت الشخصية أشبه ما تكون بالمرآة التي تعكس واقعا مليئا بالحيرة والهوس،فالبطل زكي نداوي ربما كان سويا وطبيعيا في ظروف عادية ، لكن حجم الأزمة ووقعها عليه أدى إلى وجود هذا النوع من رد الفعل.لقد حاول عبد الرحمن منيف، منن خلال تصويره الحالة الداخلية لنفسية البطل أن يوضح مقدار الفجيعة وعمق الجرح الذي هو في النفس نتيجة الهزيمة.

يرتكز النص على شخصية محورية واحدة هي شخصية زكي نداوي، تحمل الهزيمة في دمها، وتحاول أن تتحرر من عطبها وعجزها عن طريق رحلة الصيد والبحث عن الملكة"البطة " (الحقيقة)، إلا أن هذه الشخصية لم تقدم القراءة الصحيحة لسبب الهزيمة الأولى(1967)، كي تتمكن من الانتصار وتجاوز حالة العطب، يقول طرابيشي:« وباعتباره واحدا من البشر الذين من "هنا" يبدو إنسانا عاجزا تاريخيا، لا عن استباق الآتي فحسب، بل حتى عن فهم الماضي وتعليله » [1].ولعل هذا ما يفسر كثرة التساؤلات والحيرة القاتلة التي تطارد الشخصية من بداية الرواية إلى نهايتها، دون أن تجد تفسيرا لها:لماذا لم يتركونا نعبر؟ لماذا لم يتركونا نفعل شيئا ؟ كيف تحصل الأمور ؟ ولماذا تحصل بهذا الشكل ؟

1 – الزمن :

يشير الزمن النصي في رواية"حين تركنا الجسر"إلى بداية الصيف« تلك الأيام القاسية الطويلة اللامجدية في الصيف، أول الصيف» [2]، ويعتمد الراوي هنا مبدأ التكرار fréquence، إذ يشير أكثر من مرة إلى ذلك الشهر الأعمى، الذي شكل بداية الهزيمة.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/379

تشير رواية حين تركنا الجسر إلى زمن النكسة بطريقة تكاد تكون واضحة، إلى«ذلك الشهر الأعمى المليء باللزوجة، بالريح المغبرة..تجمد ذلك الشهر فوق رؤوسنا كالطير عندما يض، الذيلهواء، كان ثقيلا مليئا بتلك اللزوجة الصماء » [3].وتتكرر باستمرار العودة إلى تذكر هذا الشهر، الذي ينعته زكي بأقبح النعوت، فهو سبب خرابه النفسي.

تفتقد الرواية تقريبا إلى تقنية التتابع الزمني الواضح، فالانتقال يكون من الحاضر إلى الماضي، ثم من الماضي إلى الحاضر، دون أدنى انسجام، وجاء هذا التوظيف الزمني منسجما تماما مع طبيعة الأحداث ومع نفسية زكي نداوي، إذ يتداخل الزمن عنده إلى درجة أن فقد معاييره التوقيتية، فهو يتساءل« هل يتفتت الزمن إلى هذه الدرجة ؟ قلت ذلك لنفسي وأنا أتطلع إلى الساعة، أضفت بثقة، الزمن لا حدود له، ليس له بداية وليس له نهاية، أما الشيء الذي له بداية وله نهاية فهو الإحساس، الإحساس بالزمن»[4].وعلى هذا الأساس عرف برغسون المدة باعتبارها الإحساس الداخلي الذاتي بالزمن، واعتبرها–على خلاف الزمن–غير قابلة للقيس، « هذا الإحساس الذي يحل الائتلاف بين الإحساس محل التعاقب ولا تطوله إمكانيات الحساب والتقدير هو من مشمولات الوعي وهو ما نسميه بالمدة«(5).ويترجم هذا الفهم البرغسوني للزمن حالة من اللاجدوى والعبثية القاتلة التي يحس بها زكي نداوي، ومن هنا يمكننا تحديد دلالة الزمن في النص، إذ تسقط الشخصية ما في نفسها من حزن وإحساس بالهزيمة، على الزمن، فالذات في النص هي خالقة الموضوع، وهكذا، يتحول العالم الخارجي إلى مجرد تصور وهمي للذات« في الشتاء في شباط بالذات، ينبع الإحساس بالظلمة من كل شيء، حتى الشمس العاهرة تنفث بردا زجاجيا عندما تظهر ولا تتعب من تلك اللعبة السمجة لعبة الظهور والاختفاء » [6]. فإذا كانت الشمس بشروقها وغروبها ترمز إلى الحياة والموت في أسطورة إيزيس وأوزوريس، فإن شروقها في زمن زكي نداوي لم يعد يوحي بالحياة، فقد تساوى الغروب والشروق، وكلاهما ينفث بردا حادا. وإذا كان المتعارف عليه أن شهر شباط (فيفري) يشكل بداية الخصب الربيعي الرامز إلى النمو والانبعاث، إلا أن زكي نداوي وهو يسقط ما بنفسه من إحساس بالخراب على هذا الشهر يصبح هذا الشهر من أخس الشهور، كثير التغير، « لا تعرفه أبدا بين الشهور، له علاقة بالصيف وبالشتاء، له علاقة بتموز وكانون » [7]. وهذا التغيير المفاجئ يحدث تأثيرا عنيفا على الشخصية، فتعتريها حالات الحزن والظلمة واللاجدوى. فالشتاء كما يرى باشلار « أقدم الفصول، فهو لا يضفي قدما على ذكرياتنا فحسب، آخذا إيانا إلى الماضي البعيد... بل إنه في الأيام الثلجية يصبح البيت أيضا قديما » [8]. وذكريات الماضي عند شخصيات منيف كئيبة وحزينة.

يتداخل زمن الحاضر بالزمن الماضي تداخلا عجيبا، ويعبر هذا التداخل بين الزمنين عن عدم قدرة زكي نداوي على أن يتخلص من زمن الهزيمة، فالماضي يكبله ويشل حركته، كما أن زمن الحاضر هو الآخر زمن هزيمة، فكل المؤشرات الطبيعية (شمس، مطر، برد..) توحي بالهزيمة، وإذا كان إطار الصيد هو الإطار المناسب للتحدي وإثبات الذات، فإن الفشل في الاصطياد مرادف للهزيمة، يقول زكي، « أتلفت،

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/379

أنتظر، أنقل البندقية من يد لأخرى، تشتعل في داخلي رغبة التدخين، أكتمها » [9]. ثم سرعان ما يرتد إلى زمن الهزيمة « قلت لنفسي كنا ننقطع ساعات عن التدخين أثناء الحراسة، كانت السيجارة في ذلك الوقت عدوا، السيجارة الآن هزيمة ! » [10] . وعندما تشتد الرياح، يتذكر زكي نداوي الماضي نفس الريح التي كانت تهب في تلك الأيام، كما نجد هذا التداخل الزمني واضحا بين زمن إطلاق النار على الطير في المستنقعات وبين الرغبة في إطلاق النار على صهريج الماء أيام الهزيمة« وبما أنه يستحيل أن يعود الكائن الحي بعد مضي فترة من الزمن إلى ما كان عليه من قبل. فحينما تكون بصدد الشعور، فهناك يستحيل أن يظل الإحساس هو عينه،وأن يرتد إلى الوراء وإنما هو يقوى ويتضخم بسبب ماضيه» [11].

وإذا كان الكاتب يستخدم بعض المؤشرات الزمنية البارزة مثل الإشارة إلى شهور معينة (بداية الصيف، شباط، الأيام الأخيرة من كانون الثاني فإن مثل هذه الإحالات الزمنية مرتبطة بالهزيمة، كما يميل الكاتب إلى التركيز على بعض التمفصلات الزمنية الصغيرة، « كان الوقت عصرا، مرت سيارة الضابط بسرعة بعد أن انقطعت عنا الأخبار أربعة أيام، ودون أي مقدمات قال الضابط: انسحبوا.. سيكون الانسحاب غير منظم... وعلى كل واحد أن يدبر نفسه » [12]. يدل هذا التركيز الزمني على عمق الأثر الذي تركته هذه الوقفات الزمنية في نفسية زكي نداوي، كما تجاوز الكاتب الكثير من الأوقات الزمنية دون ذكرها، ويرجع ذلك إلى عدم جدواها، وبالتالي يتحول الزمن كله إلى مؤشر على خراب نفسية زكي نداوي، فتراءت له الحياة الماضية مليئة باللاجدوى، وتصور نفسه أكثر شؤما من غراب،« أما العداء الذي يغري صدري ويتجه في كل الأنحاء، فإنه طريق الخلاص مثلما هو طريق الهلاك » [13].

يكتسب الزمن قيمته أو لا جدواه مما يحدث أثناءه، وحسب ما تجده الشخصية في نفسها من سخط أو رضا وقد تداخل حاضر شخصيات منيف تداخلا عجيبا، لا تناسق فيه ولا ترتيب، بل فوضى، وتقطع مبررهما جو الحزن والفشل المخيم عليه وعلى من يعيشه ويشعر به. ويؤكد زمن الحاضر على استحالة الخلاص، ولذلك ارتبط بسقوط الشخصية وانهيارها.

هذا الإحساس بوحشية الزمن وسطوته، هو مظهر لما يجده الإنسان من حزن وظلمة في نفسه، وفي كل ما يراه « الماء حزين حزين، البرد والخيبة.. وذلك الدوران الأبله » [14]. يشتم زكي نداوي من الزمن رائحة رطبة مزدحمة، وكذلك الليالي بائسة خادعة تدعي الصفاء وهي مغزولة من برد لا يرى. ففي هذا الشهر تجمعت كل المآسي، فأوحت أمسياته ولياليه بالخيبة والحزن واللاجدوى، وبالخوف من حدوث أمر لا يسر « في هذه الليالي تبدو السماء بعيدة بعيدة، وتظل طيور السمن مرتبطة بالسماء أو لعلها متحدة معها » [15].

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/379

لم يجد زكي نداوي في الزمن سوى الحزن والظلمة والضياع والخيبة، فبدا طويلا مليئا بتوقعات خرساء فليس فيه غير الطول والقسوة، وتوقع ما يسوء، ولذلك يشتم زكي نداوي شهر شباط ويغري كلبه وردان بشتمه.

ونلحظ في الأخير أن الكاتب لجأ إلى تغييب الفترة الزمنية الفاصلة بين زمن الهزيمة الأولى (حزيران 1967) وزمن الهزيمة الثانية (هزيمة الصيد). فالمساحة الزمنية بين الهزيمتين معطلة ومهمشة تترجم حياة إنسان غير موجود، ميت.

نصل في الأخير إلى الاستنتاج التالي: إن زمن نص "حين تركنا الجسر"، زمن للهزيمة بامتياز، معاد للشخصية ومعجل بهزيمتها ودافع إليها، وهو زمن دائري تماما، فتختلط الأوقات في ذهن زكي نداوي بحالة هذيانية، ذلك أن زمن اللحظة الحاضرة يتلاشى بسرعة مع زمن الذاكرة، ويتلاشى أيضا مع حلم المستقبل. الخ.كان للزمن ذلك التداخل والاندماج إلى أقصى حد، ويترجم هذا التلاعب الزمني حالة الخراب والعجز عند الشخصية، وبكلمة واحدة نقول: إن زمن نص حين تركنا الجسر في أبعاده الدلالية هو زمن الهزيمة والخيبة؛ لأن الهزيمة كانت وما زالت مستمرة، ولذلك فالزمن متواصل لأن الهزيمة متواصلة، وإنما تتغير خصائصها، فبعدما كانت عسكرية تحولت إلى سياسية، ثم إلى اقتصادية، ثم إلى نفسية وإعلامية... الخ .

وكان الزمن الروائي على صورة الواقع الحياتي، مقطعا، يفتقد إلى الترتيب؛ففي ظل عصر عربي من هذا النوع،يتطلب الأمر-كما يقول منيف-« ليس فقط تكسير الزمن أو اجتراح أساليب غير مألوفة، إنه يتطلب جنونا فنيا متميزا وقويا لكي يوازي الجنون الذي اجتاح الوطن من أقصاه إلى أقصاه » [16].

نستنتج في نهاية دراستنا لعنصر الزمن في روايات عبد الرحمن منيف ذلك التماثل الكامل بين شخصياته الروائية وبين الزمن، إذ يبرز ويتشكل حسب المشاعر وفي انعكاسه عليها. كما يتميز -الزمن- بالاتساع والإطلاق، إذ نادرا ما يلجأ منيف إلى تحديد الزمن بالدقة، إذا استثنينا حديثه عن زمن السجون والتعذيب، فيتمدد الزمن عنده امتدادا واسعا ليشمل فترات زمنية طويلة سمتها الهزائم والانكسارات.

2 – المكان:

يرتكز نص "حين تركنا الجسر" على قطبين أساسيين من الأمكنة: الأول هو الجسر، المكان الذي كان في الماضي، والذي بني وتركه الجنود وحيدا بأمر من القادة، والثاني هو المكان الحاضر، والذي يشير إلى مكان الصيد في المستنقعات بحثا عن البطة.

وقبل أن نبحث دلالة هذين المكانين بوصفهما عنصرين بنيويين من مكونات النص الحكائي، نقوم بترتيب هندسة المكانين وكيفية إكسابهما البعدين الجمالي والدلالي.

أ – مكان الهزيمة الأول:

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/379

يشترك المكان الأول مع المكان الثاني في عدد من الملامح والخصائص، فكلاهما مكان للهزيمة، فالمكان – الجسر احتضن الطيور والحيوانات، وقد حدثنا زكي عن سلحفاة احتفظ بها رمزا لصمود من نوع ما، والمكان الثاني – المستنقع –كان وكرا للطيور والزرازير ودجاج أرض وحجل وبط، كما أن في المكانين خنادق، ونهر ومياه وأشجار، وفيهما جسر مثّل هزيمة "زكي نداوي". الرجال.ي المستنقعات يذكر زكي بجسره القديم، جسر الهزيمة عندما كان جنديا: « اجتزت المستنقعات، كان الجسر يقف بشموخ لا يأبه لنظرات البشر، قلت لوردان الذي توقف قبل الجسر: تمهل قبل أن تعبر الجسر، فكّرت بالجسر الآخر.. الرجال .. بتلك الأيام القاسية الطويلة اللامجدية في الصيف. تطلعت للجسر من جديد كما لو أني أراه أول مرة، بدا صغيرا عنيدا وأقرب إلى التحدي، قلت بتحدّ: أيها الجسر الأعوج من أنت إذا قارنت نفسك بجسرنا » (17).

كان الجسر الأول، في نظر نداوي، الإله الذي ينتظر القرابين، يقول لأحد أصدقائه: « لم تقدم لهذا الإله الضحايا.. لو كان في غير هذا المكان لذبحنا خروفا أو عجلا.. » (18). والجسر القديم ليس ، كما يتوهم القادة ، مجموعة من قطع الحديد المشدودة إلى بعضها ، إنه إنسان له روح ، ومن هنا وجب احترامه وتقديسه.

وإذا كان كل جسر في العالم يستخدم للعبور، فقد أحب زكي ورفاقه الجسر وقدسوه وغنوا له كثيرا وصنعوا له أكاليل النصر ليتوّج بها رأس أول من يعبر إلى الضفة الأخرى. كان الجسر رائع الجمال ناصعا لامعا، بلونه الفضي المرقط، وبالرغم من كل هذه المميزات، فقد قيمته لأنه لم يحقق حلم العبور « كان الجسر ونحن نتركه ذلك اليوم ذليلا » (19).

لقد منع القائد الجند من العبور، قالوا بغضب « لا تتركوا الخنادق: أربضوا كالحجارة، وعندما تتلقون الإشارة يجب أن تكونوا جاهزين لنقل الجسر فوق النهر » (20). وكان زكي ورفاقه ينتظرون في العرى، كان الدوي يأتي من جانب واحد، والجسر في مكانه بصلابته ينتظر الجند، وكان الجميع ينتظر الأمر الصغير الواضح « انصبوا الجسر على النهر ودافعوا عنه حتى آخر رجل » (21). لم يأت هذا الأمر، بل جاء الأمر الذي شكل محور الهزيمة، قالوا لنا « اتركوا كل شيء... وانجوا بأرواحكم » (22).

ب – مكان الهزيمة الثاني:

والمكان الثاني عبارة عن غوطة تغص بالمستنقعات والأوحال والأشجار، فالمستنقعات كثيرة، والمدى فيها فسيح ممتد، وما يرى من ألوان يطفح بالقبح والقرف، فالماء الأخضر في النهر تسيل طبقته العليا وحدها، وما يبقى يعجز عن التجدد ويصفر:« الخضرة الطحلبية تملأ كل شيء وتعطيه كل اللون الأخضر الكامد الحزين » (23). والأرض صفراء رمادية، والسماء باهتة الزرقة، أما الأشجار فلا قوة ولا خصوبة ولا جمال، فأشجار الحور عارية ضعيفة كأنها مغروسة دون جذور، وأشجار الصفصاف تترنح بدوي صغير

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/379

حزين، وأشجار التوت تشبه بأغصانها المتداخلة حالة من الفوضى الدائمة، والأرض تحولت في نظر " زكي نداوي " ملحا أسود. والطريق إلى هذا المكان خال من البشر، يجتاحه البرد، وفيه شاهد زكي أكوام الثلج مكدسة، واعترض طريقه خندق مليء بالماء وأشجار العليق. فتطابقت شخصية زكي نداوي مع الطبيعة الحزينة، ذلك أن« الحياة الكئيبة أو الشخص المكتئب يضفيان على الكون من كآبتهما؛ لأن الأشياء المادية تصبح تجسيدا للحزن أو للندم أو للحنين » (24).

ليست الطبيعة في حال هزيمة الشخصية إلا عاتبة قاسية قبيحة، فالرياح تنفجر في كل مكان شديدة حادة «حتى لتبدو في لحظات وكأنها تتمطى الأشجار والأرض والمستنقعات، وتبقى فوقها» (25). وهذا الجو البارد الحزين الذي يجثم على المكان يذكر زكي نداوي بهزيمة الجسر الأولى، أيام حزيران المشؤومة « نفس الرياح التي كانت تهب في تلك الأيام » (26).

وبالإضافة إلى الرياح والبرد، كانت الظلمة ثابتة في مكانها، كما لو أنها تنبع من الأرض، فالكون مظلم لا نور فيه، وظلمته مكثفة شديدة، مثلما هي الظلمة في نفس زكي نداوي، الذي تسكنه الخيبة، « لم أعد أحس بوجود مستقل ، أصبحت الظلمة غيمة ثقيلة وأنا أدور فيها » (27) .

لقد حمل زكي نداوي خيبته واتجه بها إلى فضاء آخر يحمل الملامح نفسها، لم يتجه إلى النهر كي يتطهر ويحرر نفسه والآخرين من هاجس الهزيمة، بل قد وجد من يدفعه ويوجهه إلى مكان الهزيمة. لقد التقى زكي نداوي، وهو في طريقه إلى الصيد بشيخ نصحه بالتوجه إلى المستنقعات« البط عموما قليل، لكن يوجد في هذه البقعة بعض الأوقات ! وأشار بيده، أشار إلى المستنقعات البعيدة ! » (28). وكان الشيخ يكلم زكي نداوي بطريقة غير مفهومة في أغلب الأحيان، وهذا دليل على أن الشيخ يمثل الماضي الذي لم يستطع زكي نداوي فهمه وتفسير سبب هزيمته، وما دام لم يستطع أن يجتاز الجسر، كي يحرر نفسه ويحرر الآخرين، فلم يبق له سوى المستنقعات التي ترمز إلى الوهم والهزيمة، وافتقاد اليقين أو الوعي الكافي لتجاوز الواقع السلبي.

إن وصف هذا الفضاء وصف لنفسية " زكي نداوي " المنكسرة المأزومة، وهذا الفضاء غير محدد، وهو فضاء في العراء، كل شيء فيه يوحي بالضعف والعجز ويذكر بالهزيمة، يقول زكي نداوي مخاطبا كلبه وردان: «كان الأفضل لو سرنا في طريق آخر، هذا الطريق يا وردان يذكرنا بالهزيمة » (29).

وبالرغم من كل ملامح الفضاء الحزينة، التي تتوافق مع نفسية زكي نداوي، فإنه اختار هذا الفضاء بالذات، لم يختر غيره، اختار المستنقع ولم يختر النهر، ولذلك فإن هزيمة الطبيعة في هذا الفضاء تذكره بهزيمته الأولى.

إن هذا التماثل الكامل بين مكان الهزيمة (هناك) ومكان الصيد (هنا) يوحي بهزيمة زكي نداوي الذي اختار مكانا شبيها بمكان هزيمته الأولى، فلم يستطع التحرر من ذلك المكان – الجسر – الذي غدا

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/379

ذكرى مؤلمة تؤرقه. إلا أن هذا الجسر الذي لا يغيب عن مخيلته يسميه زكي في الرواية "واحدة، " فهو خاص جدا، فقد اجتمع تسعة جنود في صيف ما وبنوه ليعبروا النهر، أحبوه وعبدوه، وهذا ما يجعلنا نتساءل إن كان للجسر مقابل حقيقي في الواقع التاريخي، أم أنه مجرد فكرة تجريدية ؟ والحقيقة أن الجمع بين المستويين لحقيقة الجسر يقودنا إلى نتيجة واحدة، وهي التجاوز والتحرر والانتصار.

فالجسر في مستواه التجريدي يوحي بالوحدة وتجاوز الإنسان لضعفه، وفي مستوى أشمل تجاوز الشعوب العربية لانقساماتها وتخاذلها، وقد وردت لفظة الجسر بهذا المعنى في رواية منيف "شرق المتوسط"، دالة على القوة والصمود والوحدة، يقول رجب إسماعيل، مخاطبا أمه: « لم أقل شيئا يا أمي، كلماتك كانت الجسر .. نظرتك الصلبة وأنت تحذرينني جعلت مني رجلا طوال خمس سنين » [30]. أما الجسر في مستواه الواقعي والتاريخي، فقد ساعدتنا بعض المؤشرات النصية على معرفته (الجولة، النهر..) بالإضافة إلى أن منيفا قد أراحنا من عناء البحث، عندما أشار في أحد حواراته إلى أن الرواية تدور حول هزيمة حزيران 1967: « أعتقد أن هذه الرواية تحاول تسجيل الهزيمة بأفكار محددة كان إطارها الصيد، وكان حزيران جوها » [31]. وبهذا يكون الجسر إشارة إلى جسر نهر الأردن الذي يفصل بين فلسطين والأردن، وقد اعتدت إسرائيل على حدود الأردن في حرب 1967، وكانت النكسة.

لقد بني الجسر فعلا، ولكنه لم يوضع على النهر، بمعنى أن فكرة الوحدة بين الشعوب تمت، ولكنها ليست بالصلابة المطلوبة التي تحقق الانتصار والعبور، إذ بمجرد أن جاء الأمر بالتخلي عنه هرب الجنود، فلو كان الجسر صلبا وقويا في الواقع لا كما تخيل الجنود التسعة الذين بنوه – الجيوش العربية التي شاركت في حرب 1967– لتمت عملية العبور، ولذلك يصرخ زكي:«آه، لو استطعنا نسف الجسر » [32].

إن الجسر الحقيقي هو وعي الجيل الجديد بضرورة التغيير، فالجسر الذي عذب زكي نداوي كان ظاهريا فقط، ولم يكن يؤمن به كل الجنود التسعة، أي الجيوش العربية التي التقت على جبهات القتال. فإذا كان زكي قد عبد الجسر إلى حد التقديس، فقد وجد آخر يبول على حافته.

وعلى العموم، فإن الفضاء المقدم في هذه الرواية هش، غير قابل للصمود، فضاء في العراء غير محدد بإشارات دقيقة، وهذا ما يجعله فضاء للهزيمة بامتياز، كما أن شخصية زكي نداوي نسيج مكاني يتصف بصفات المكان نفسها، وبالتالي لم تستطع أن تصل إلى الضفة الثانية من المكان، لأنها ما زالت في طور الهزيمة، ولكي تعبر إلى الضفة الأخرى لا بد أن تتغير تماما، وأن تتخلص من الداء الذي ينخر جسمها، فالجسر ومستنقعات الصيد معالم للهزيمة، وعلى زكي نداوي أن يقصد النهر الصافي كي يتطهر من خطيئته.

3 – الشخصية:

في رواية " حين تركنا الجسر " يتخذ القمع شكلا أكثر حدة وعنفا، وإن لم يظهر بشكل مباشر كما في الروايات الأولى لمنيف، فظهر وجه آخر من وجوه مرزوق المقنع بوجه زكي نداوي، وتصل الشخصية

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/379

المثقفة إلى حد الخيبة والهزيمة، إذ تعد شخصية زكي نداوي فيها من أغنى الشخصيات الروائية في أعمال عبد الرحمن منيف، فهي شخصية مستديرة ركز الكاتب بالدرجة الأولى على إبراز عالمها الداخلي، من كل الجوانب النفسية والفكرية والعقلية. وهي شخصية مثقفة لها فلسفتها وآراؤها في الكون والوجود والحياة والموت والإنسان والهزيمة والسلطة.

يصطحب زكي نداوي في رحلة الصيد الكلب " وردان " الذي يمتلك هو الآخر فكرا ورأيا قد يسخر في بعض الأحيان من فكر نداوي الداخلي وفلسفته وحكمته، وقد تعمد الكاتب أن يصطحب زكي في رحلة الصيد هذه الكلب وردان، لأن زكي كان بحاجة ماسة إلى إبراز حجم الهزيمة الذي ينخر عظامه، وكان على الكلب أن يقوم بتحريض زكي على البوح بهول الفجيعة والخيبة، فالبوح بالمأساة قد يؤدي إلى التطهر، فقد عبر حضور الحيوان عن هزيمة الشخصية تارة، وعن أحلامها تارة أخرى.

لم تكن نظرة زكي نداوي إلى الكلب وردان واحدة، فهو سيد الكلاب، وقد تفوق على زكي، فما استطاع أن يضاهيه رفعة وسموا« أنت أذكى مئات المرات من زكي نداوي » [33]. فالكلب يتميز بشدة الذكاء، وهو ربما أذكى من زكي ومن بشر كثيرين، فهو لا يعرف معنى التسليم أبدا أو التنازل ولا يرعوي، أما زكي نداوي فيقول عن نفسه أنا " كلب سائب، أخاف من تلويحة اليد » [34]. وحتى الطيور التي يسعى إلى اصطيادها أفضل منه. كان زكي كائنا لا قيمة له وهو صياد مطعون، والطيور تعرف ذلك « وتعرف أنه مخصي لا جدوى منه » [35].

لا تكمن مشكلة نداوي فيه شخصيا، وليس هو السبب فيما يعاني منه، فقد جاءته الأزمة التي يتكلم عنها من الخارج، من القادة الذين يعطون الأوامر حفاظا على مصالحهم الشخصية ويتركون الجنود يقتلهم الألم ويعبث بهم الجنون والضياع، وما رحلة الصيد إلا شكل من أشكال الرغبة في التحرر من قبضة الآخر حتى يصير الإنسان حرا. لقد كان زكي نداوي وهو يصطاد الطيور تحضره نكسة حزيران 1967، بكل قسوتها، ولذلك فهو يقوم بفعل انتقامي متوهما الطيور أعداء، مثلها مثل الجيوش الإسرائيلية، فراح يتلذذ بالقتل: « إن شيئا أكبر من صوت الطلقة يملأ كل شيء في.. إنه صوت الفرح.. صوت الظفر » [36]، فكلما قتل زكي عددا أكبر من الطيور، اعتقد أنه صار منتصرا، وبالتالي تحرر من سلطة الآخر الذي جلب الهزيمة، لقد مثلت رحلة الصيد المجال الأنسب لبحث زكي عن ذاته، بغرض تحريرها من الخور والضعف.

وكما توهم نداوي الطيور أعداء له، توهم وجود عنقاء الزمان التي تقود إلى انبعاث جديد يحرر الإنسان والوطن، لكنه سقط في وهم كبير، فالبطة التي أمسك بها في نهاية الرواية، والتي ترمز إلى ذاته المنكسرة، لم تكن ملكة جمال يعلو رأسها تاج النصر، بل كانت أقبح بومة رآها في حياته، حتى الكلب وردان يرفض أمر إخراجها من المستنقع، ويقتله زكي نداوي، حتى لا يلوث نفسه أكثر بهذه البومة القبيحة، التي ترمز إلى ذات زكي نداوي، صورة لذات أكبر وبومة أقبح، وهي الحاكم العربي الذي أفرز نظام حكمه

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/379

المستبد مخلوقات مشوهة منكسرة مثل زكي نداوي « الكبار.. الكبار هم الذين يخلقون الهزائم.. والصغار هم الذين يموتون، لو كنت أمتلك دبابة هل يجرؤ هذا الوغد على التحدي ؟.. » (37).

حاول زكي نداوي – الذي وقع تحت وطأة حزيران – أن يتحرر، أن يخلص نفسه، أن ينقذ هذه النفس لكي يحرر الآخرين، وينقذهم، إلا أن الأوهام هي ذاتها طريق الخيبة والسقوط، فالإنسان الذي يتوهم أعداءه في الطيور ويطارد عنقاء، والذي يأخذ الطريق حتى النهاية هو نفسه الذي سيسقط فريسة لوهم كبير، ولا يمكن إنقاذه منه.

وفي النهاية نقول إن شخصية زكي نداوي صورة للفرد العربي الذي هزمه النظام العربي سياسيا واجتماعيا. كانت الهزيمة مرة وقاسية، لذلك ظلت آثارها واضحة في كل الأشياء التي تحيط بنا، فالرجل المهزوم، أو الرجل الذي لم يحارب رغما عنه، كان يريد أن يحارب، أن يدافع عن شرفه وجدارته الوطنية والإنسانية، والعنقاء التي توهمها خصما ما لبث أن بدت له طيرا عاديا بائسا، وظلت الخيبة والمشكلة عالقة في دمه إلى أن اندمج مع البشر مرة أخرى، وتأكد أن ما يريده غير ذلك الذي كان يطارده.

الهوامش:

1 – جورج طرابيشي، رمزية المرأة في الرواية العربية، دار الطليعة، بيروت، ط 2، 1985، ص14.

2) – عبد الرحمن منيف ، حين تركنا الجسر ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط 5 ، 1990 ، ص 187.

3) – المصدر نفسه، ص 124.

4) – المصدر نفسه، ص 193.

5)- Henri Bergson, essais sur les données immédiates de la conscience (les études bergsoniennes), Vol 8, PUF Paris 1968, p. 71.

6) – المصدر السابق، ص 183.

7) – المصدر نفسه، ص 153.

8) – غاستون باشلار، جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط 2 ، 1984 ، ص 63 .

9) – المصدر السابق، ص 194.

10) – المصدر نفسه، ص 194 .

11) – مصطفى غالب، في سبيل موسوعة فلسفية (برغسون) ، دار مكتبة الهلال ، القاهرة 1998 ،ص 106 .

12) – عبد الرحمن منيف، حين تركنا الجسر، ص 174.

13) – المصدر نفسه، ص 97.

14) – المصدر نفسه، ص 39.

15) – المصدر نفسه، ص 43.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/379

16) – عبد الرحمن منيف ، الكاتب والمنفى (هموم وآفاق الرواية العربية) ، سلسلة الكتاب الجديد ، دار الفكر الجديد ، بيروت ، ط 1 ، 1992 ، ص 189 .

17) – عبد الرحمن منيف، حين تركنا الجسر، ص 187.

18 – المصدر نفسه، ص 115.

19) – المصدر نفسه، ص 132.

20)– المصدر نفسه، ص 124.

21) – المصدر نفسه، ص 125.

22) – المصدر نفسه، ص 78.

23) – المصدر نفسه، ص 74.

24) – غاستون باشلار، جماليات المكان، ص 140.

25) – عبد الرحمن منيف، حين تركنا الجسر، ص 155.

26) – المصدر نفسه، ص 37.

27) – المصدر نفسه، ص 11.

28) – المصدر نفسه، ص 93.

29) – المصدر نفسه، ص 142.

30) – عبد الرحمن منيف، شرق المتوسط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط 8، 1991، ص 114.

31) – عبد الرحمن منيف، الكاتب والمنفى، ص 299.

32) – المصدر السابق، ص 78.

33) – عبد الرحمن منيف، حين تركنا الجسر، ص 177.

34) – المصدر نفسه، ص 9.

35) – المصدر نفسه، ص 18.

36) – المصدر نفسه، ص 47.

37) – المصدر نفسه، ص 17.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/379